بقلم: الاستاذ محمّد تقي الدّين النهبانى

الاسلام
طريق الرشد والهدى

الاسلام هو الدّين الذى انزله الله على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بتنظيم علاقة الانسان بخالقه، وبنفسه، وبغيره من بني الانسان - و علاقة الانسان بخالقه تشمل العقائد والعبادات، وعلاقته بنفسه تشمل الاخلاق والمطعومات والملبوسات، وعلاقته بغيره من بنى الانسان تشمل المعاملات والعقوبات - فالاسلام مهدا لشؤون الحياة جميعًا، وليس دينًا لاهوتيًا، ولا يتصل بالكهنوتية بسبب - وانه ليقضي على الاوتوقراطية الدينية (الاستبداد الديني) فلا يوجد فى الاسلام جماعة تسمى رجال الدين، وجماعة تسمى رجال الدنيا، بل جميع من يعتنقون الاسلام يسمون مسلمين، وكلهم امام الدين سواء - فلا يوجد فيه رجال روحيون، ورجال زمنيون - والناحية الروحية فيه هي كون الاشياء مخلوقة لخالق، ومدبرة بامر هذا الخالق - لان النظرة العميقة للكون والانسان والحياة، وما حولها وما يتعلق بها، والاستدلال بذلك يري الانسان النقص والعجز والاحتياج المشاهد الملموس في هذه الاشياء جميعها، مما يدل دلالة قطعية على انها مخلوقة لخالق، ومدبرة بامره، وان الانسان وهو سائر في الحياة لا بد له من نظام ينظم غرائزه وحاجاته العضوية - ولا يتأتى هذا النظام من الانسان لعجزه وعدم احاطته - ولان فهمه لهذا التنظيم عرضة للتفاوت والاختلاف والتناقض مما ينتج النظام المتناقض المؤدي الى شقاء الانسان - ولذلك كان حتمًا ان يكون النظام من الله تعالى - ولهذا كان لزاماً على الانسان ان يسير اعماله بنظام من عند الله - الا ان هذا التسيير بالنظام ان كان بناء على منفعة

هذا النظام. ولم يكن بناء على انه من الله، لا تكون فيه ناحية روحية. بل لا بد ان يكون تنظيم الانسان اعماله في الحياة باوامر الله ونواهيه، بناء على ادراكه صلته بالله، حتى توجد الروح في الاعمال. اي لا بد من ادراك الانسان صلته بالله، وبناء على ادراكه لهذه الصلة بالله يسير اعماله بأوامر الله ونواهيه، حتى توجد الروح عند القيام بالاعمال. اذا الروح هي ادراك الانسان صلته بالله، ومعنى مزجها مع المادة، هو وجود الادراك للصلة بالله حين القيام بالعمل، فيسير بأوامر الله ونواهيه بناء على ادراك هذه الصلة بالله. فالعمل مادة، وادراك الصلة بالله حين القيام به هو الروح، فصار تسيير العمل بأوامر الله ونواهيه بناء على ادراك الصلة هو مزج المادة بالروح. ومن هنا لم يكن تسيير غير المسلم اعماله بالاحكام الشرعية المستنبطة من القرآن والسنة تسييرًا بالروح، ولا متحققًا فيه معنى مزج المادة بالروح، لانه لم يؤمن بالاسلام، فلم يدرك الصلة بالله، بل أخذ الاحكام الشرعية نظامًا اعجبه فنظم به اعماله، بخلاف المسلم فقد كان قيامه باعماله وفق اوامر الله ونواهيه هي رضوان الله، لا الانتفاع بالنظام فقط وعلى ذلك لا بد من وجود الناحية الروحية في الاشياء، ولا بد من الروح حين القيام بالاعمال. على ان يكون واضحًا دائمًا عند الجميع ان الناحية الروحية تعني كون الاشياء مخلوقة لخالق خلقها، اي هي صلة المخلوق بالخالق، وان الروح هي ادراك هذه الصلة. اي ادراك الانسان صلته بالله تعالى. هذه هي الناحية الروحية، وهذه هي الروح. وهذا وحده هو المفهوم الصحيح وما عداه مفهوم مغلوط قطعًا. والنظرة العميقة المستنيرة الى الكون والحياة والانسان هي التي أدت إلى النتائج الصادقة، وهي التي أدت الى هذا المفهوم الصحيح.

وقد نظرت بعض الأديان إلى أن الكون فيه المحسوس والمغيب، والإنسان فيه السمو الروحي والنزعة الجسدية، والحياة فيها الناحية المادية والناحية الروحية، وان المحسوس يتعارض مع المغيب، وان السمو الروحي لا يلتقي مع النزعة الجسدية، وان المادة منفصلة عن الروح. ولذلك فهناك

الناحيتان منفصلتان عندهم، لان التعارض بينهما اساسي في طبيعتهما، ولا يمكن امتزاجهما، وان كل ترجيح لاحداهما في الميزان فيه تخفيض لوزن الاخرى. ولهذا كان على مريد الآخرة أن يرجح الناحية الروحية. ومن هنا قامت في المسيحية سلطتان: السلطة الروحية، والسلطة الزمنية (اعط ما لقيصر لقيصر وما لله لله)، وكان رجال السلطة الروحية هم رجال الدين وكهنته، وكانوا يحاولون ان تكون السلطة الزمنية بايديهم، حتى يرجحوا عليها السلطة الروحية في الحياة، ومن ثم نشأ النزاع بين السلطة الزمنية والسلطة الروحية. وأخيراً تم جعل رجال الدين مستقلين بالسلطة الروحية، لا يتدخلون بالسلطة الزمنية، وقد فصل الدين عن الحياة لانه كهنوتي، وهذا الفصل بين الدين والحياة، هو عقيدة المبدأ الرأسمالي، وهو أساس الحضارة الغربية، وهو القيادة الفكرية التي يحملها الاستعمار الغربي للعالم ويدعولها ويجعلها عماد ثقافته، ويزعزع على اساسها عقيدة المسلمين بالاسلام، لأنه يقيس الاسلام بالمسيحية على طريقة القياس الشمولي. فكل من يحمل هذه الدعوة "فصل الدين عن الحياة" او فصل الدين عن الدولة أو عن السياسة انما هو تابع وموجه بتوجيه القيادة الفكرية الاجنبية، وعامل - بحسن نية أو بسوئها - من عملاء الاستعمار. وهو جاهل بالاسلام أو معاد له.

وأما الاسلام فيرى أن الاشياء التي يدركها الحس هي اشياء مادية، والناحية الروحية هي كونها مخلوقة لخالق، والروح هي إدراك الإنسان صلته بالله، وعلى ذلك لا توجد ناحية روحية منفصلة عن الناحية المادية، ولا توجد في الانسان اشواق روحية ونزعات جسدية، بل الانسان فيه حاجات عضوية، وغرائز، لابد من إشباعها، ومن الغرائز غريزة التدين التي هي الاحتياج الى الخالق المدبر الناشيء عن العجز الطبيعي في تكوين الانسان. وإشباع هذه الغرائز لا يسمى ناحية روحية ولا ناحية مادية، وإنما هو اشباع فقط. إلا أن هذه الحاجات العضوية والغرائز إذا أشبعت بنظام من عند الله بناء على إدراك الصلة بالله كانت مسيرة بالروح، وإن أشبعت

بدون نظام، او بنظام من عند غير الله، كان إشباعًا ماديًا بحتا يؤدي الى شقاء الإنسان - فغريزة النوع إن أشبعت من غير نظام او بنظام من عند غير الله كان ذلك مسببا للشقاء، وان اشبعت بنظام الزواج الذى من عند الله حسب احكام الاسلام كان زواجًا موجدًا للطمأنينة - وغريزة التدين إن أشبعت من غير نظام او بنظام من عند غير الله بعبادة الاوثان او عبادة الإنسان، كان ذلك إشراكًا وكفرًا، وإن اشبعت بأحكام الإسلام كان ذلك عبادة - ولهذا كان لزامًا ان تراعى الناحية الروحية فى الاشياء، وأن تسير جميع الأعمال بأوامر الله ونواهيه، بناء على ادراك الانسان صلته بالله، أي أن تسير بالروح، ولذلك لم يكن في العمل الواحد شيئان اثنان، بل الموجود شيء واحد هو العمل، وأما وصفه بأنه مادى بحت، أو مسير بالروح، فانه ليس اتيا من نفس العمل، بل آت من تسييره باحكام الإسلام، أو عدم تسييره بها - فقتل المسلم عدوه فى الحرب يعتبر جهادًا يثاب عليه، لأنه عمل مسير بأحكام الاسلام، وقتل المسلم نفسا معصومة (مسلمة او غير مسلمة) بغير حق يعتبر جريمة يعاقب عليها، لانه عمل مخالف لأوامر الله ونواهيه - وكلا العملين شيء واحد هو القتل، صادر عن الإنسان، فالقتل يكون عبادة حين يسير بالروح، ويكون جريمة حين لا يسير بالروح ولذلك كان لزامًا على المسلم ان يسير أعماله بالروح، وكان مزج المادة بالروح ليس امرًا ممكنًا فحسب بل هو أمر واجب. ولا يجوز ان تفصل المادة عن الروح، أي لا يجوز ان يفصل اي عمل عن تسييره بأوامر الله ونواهيه بناء على إدراك الصلة بالله - ولهذا يجب ان يقضى على كل ما يمثل الناحية الروحية منفصلة عن الناحية المادية - فلا رجال دين فى الإسلام، وليس فيه سلطة دينية بالمعنى الكهنوتي، ولا سلطة زمنية منفصلة عن الدين، بل الاسلام دين منه الدولة، وهى احكام شرعية كأحكام الصلاة، وهى طريقة لتنفيذ احكام الاسلام وحمل دعوته ويجب ان يلغى كل ما يشعر بتخصيص الدّين بالمعنى الروحي وعزله عن السياسة والحكم،

فتلغى المؤسسات التي تشرف على النواحي الروحية، فتلغى إدارة المساجد وتكون ادارتها تابعة لادارة المعارف، وتلغى المحاكم الشرعية و المحاكم النظامية، ويجعل القضاء واحداً لا يحكم إلّا بالاسلام، فسلطان الإسلام سلطان واحد.

والإسلام عقيدة ونظم، اما العقيدة فهي الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله، وباليوم الآخر، وبالقضاء والقدر خيرهما وشرهما من الله تعالى. وقد بنى الاسلام العقيدة على العقل فيما يدركه العقل، كالايمان بالله، وبنبوّة محمد عليه السلام، وبالقرآن الكريم، وبناها في المغيبات، اي مالا يمكن للعقل ان يدركه كيوم القيامة والملائكة والجنة والنار على التسليم على ان يكون مصدرها ثابتاً بالعقل وهو القرآن الكريم والحديث المتواتر. وقد جعل الاسلام العقل مناط التكليف.

اما النظم فهي الاحكام الشرعية التي تنظم شؤون الانسان، وقد تناول نظام الاسلام جميع هذه الشؤون، ولكنه تناولها بشكل عام، بمعان عامة، وترك التفصيلات تستنبط من هذه المعاني العامة حين اجراء التطبيقات. فقد جاء القرآن الكريم والحديث الشريف يتضمنان خطوطاً عريضة، اي معاني عامة لمعالجة شؤون الإنسان من حيث هو انسان، وترك للمجتهدين أن يستنبطوا من هذه المعاني العامة الاحكام الجزئية، للمشاكل التي تحدث على مر العصور واختلاف الامكنة.

وللاسلام طريقة واحدة في معالجة المشاكل، فهو يدعو المجتهد لان يدرس المشكلة الحادثة حتى يفهمها، ثم يدرس النصوص الشرعية المتعلقة بهذه المشكلة، ثم يستنبط حل هذه المشكلة، من النصوص، اي يستنبط الحكم الشرعي لهذه المسألة من الأدلة الشرعية، ولا يسلك طريقة غيرها، مطلقاً على أنه حين يدرس هذه المشكلة، يدرسها باعتبارها مشكلة إنسانية ليس غير، لا باعتبارها مشكلة اقتصادية او اجتماعية أو مشكلة حكم أو غير ذلك، بل باعتبارها مسألة تحتاج إلى حكم شرعي، حتى يعرف حكم الله فيها.